واستدعي المستر سي. ل. وولي والمستر تي. ي. لورنس من جرابلس لدراسة الاثار في المنطقة التي اتمت البعثة مسحها باستثناء ناحية صغيرة عند ميناء العقبة رفضت السلطات العثمانية السماح لها بدخولها ، ولم يكن لذلك المنع تاثير كبير فقد كان كتشنر قد مسح هذه المنطقة عام ١٨٨٠(١٥). وسبق عملية المسح الاخيرة هذه عمليات مسح وحفريات في اماكن محددة كوادي عربة عام (١٨٨٢ — ٨٤) ، وحفريات في تل الحسي (١٨٩٠ — ٩٢) ، والقدس (١٨٩٤ — ٩٧) وتلال زكريا والصافي والجديدة وساندراهانة (١٨٩٨ — ١٩٠٠) وتل الجزاري (١٩٠٢ — ١٩٠٥)وعاودت البعثة الحفر في هذا المكان (١٩٠٧ — ١٩٠٩) وحفرت في عين شمس (١٩١١ — ١٩١٢) .

وعندما ارادت بريطانيا التدخل عسكريا في مصر عام ١٨٨٢ على اثر قيام ثورة عرابي باشا سعت الى ضمان تأييد شيوخ القبائل في سيناء لها او الى ضمان سكوتها على الاقل لتضمن بذلك سلامة قناة السويس وعدم تعرض القوات البريطانية الى هجوم من الخلف . فلم تجد من يقوم بهذه المهمة افضل من البروفسور بالمر — موظف صندوق الاستكشافات الفلسطينية — فوصل الى غزة ومشى من هناك الى قناة السويس حيث عقد اتفاقيات مع مشايخ الطوارة والتياهة وغيرهما من قبائل المنطقة ، وقدم تقريرا بهذا الشأن في مطلع شهر آب عام ١٨٨٢ الى الاميرال السير وليم هيويت ولكنه قتل هو وزميلان بريطانيان له في الثامن من الشهر ذاته اثناء عودتهم الى غزة ، وانتقمت الحكومة البريطانية لمقتلهم انتقاما قال عنه الكولونيل واتسون امين صندوق الاستكشافات البريطانية آنذاك ان رجال القبائل لن ينسوه أبد الدهر . وقال ان خسارة الصندوق بوفاة بالمر لا تعوض لانه لم يكن يوجد من يعرف العرب والعربية اكثر منه(١٦).

عقدت لجنة الصندوق سلسلة من المحاضرات في صيف عام ١٨٩٢ ونشرت هذه السلسلة في كتاب بعنوان « المدينة والبلاد » وكان ابرز ما فيه محاضرتان احداهما القاها وولتر بيسانت الامين الفخري للصندوق وكان قد شغل منصب الامين الفعلي مدة خمسة وعشرين عاما . والثانية القاها كلود كوندر وكانت بعنوان « مستقبل فلسطين ». تحدث بيسانت عن عمل الجمعية فقال : « كنا نقوم بثورة كاملة في فهم ودراسة التوراة ، كنا نحيي العظام وهي رميم ، كنا نستعيد مجد فلسطين في عهد هيرودوس، كنا نستعيد بلاد داود، كنا نرد الى الخارطة اسماء المدن التي دمرها القائد العظيم يوشع ، لقد اعدنا للقدس مجدها وفخامتها ، لقد اعدنا البلاد (فلسطين) للعالم بالخارطة وبالاسماء والاماكن المذكورة في التوراة . واسمحوا لي أن افاخر بذلك اذا علمتم ان شخصا واحدا (كوندر) قد استعاد من الاسماء القديمة اكثر مما فعله جميع الباحثين والرحالين حتى الان »(١٧). ومضى بيسانت في مفاخرته بمنجزات الصندوق فقال : « عندما وضعت الاسماء في اماكنها اصبح في وسعنا تتبع سير الجيوش في زحفها ... طريق السرية البطريركية .. طريق الغازي .. طريق العدو الهارب ... هنا توجد التلال ، وهناك توجد الوديان ، وهناك الطرق ... الجيش لا يستطيع ان يقفز قفزا من فوق الوادي ، لا يستطيع ان يتسلق صخرة عمودية في انحدارها ... وانما هذا هو الطريق الذي كان للقائد الفلاني ان يقود قواته فيه ولا طريق سواه . » هذه الفقرة بالذات لها أهمية كبيرة لا تقف عند حد دراسة التاريخ ، وقد استفاد الجيش البريطاني في غزو فلسطين عام ١٩١٧ وكذلك الجيش الصهيوني عام ١٩٤٨ ثم عام ١٩٥٦ من الطرق القديمة التي كانت قد اندثرت على مر الايام . والقى كلود كوندر — الذي تكرر ذكر اسمه فيما سبق — كلمة بعنوان « مستقبل فلسطين » ولعل في هذه الكلمة دليلا ملموسا على اهداف الصندوق الحقيقية ، فقال : « التاريخ يعيد نفسه ، وهذا يصح بصورة خاصة في الامور المتعلقة بالتجارة والحرب ، لان الطرق في أي بلد تظل على حالها عبر القرون، والتضاريس الطبيعية كالجبال والينابيع والانهار لا تتغير ، والاماكن المشرفة على ميادين القتال ثابتة وان تغيرت الاسلحة والاساليب التي تتبعها الجيوش »(١٨). ومضى كوندر فتحدث عن الهجرة اليهودية الى فلسطين وخاصة مدينة القدس فقال ان عدد اليهود في مدينة القدس عام ١٨٧٣ لم يكن

---

١٥ — المصدر نفسه .
١٦ — المصدر نفسه .
١٧ — The City and the Land.
١٨ — المصدر نفسه .